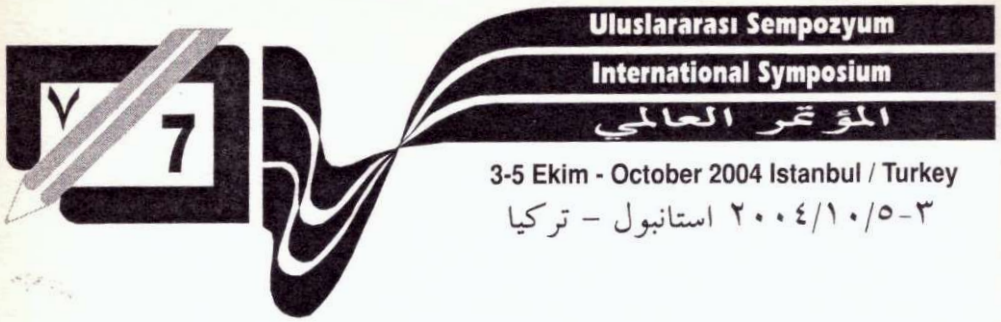

Uluslararası Sempozyum
International Symposium
المؤتمر العالمي

3-5 Ekim - October 2004 Istanbul / Turkey
٣-٥/١٠/٢٠٠٤ استانبول - تركيا

المؤتمر العالمي السابع
لبديع الزمان سعيد النورسي

ممارسة حياة ايمانية فاعلة

في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات
من خلال رسائل النور

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م

Ekim 2004

الترقيم الدولي

ISBN: 975-269-043-2

شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع

النورسي والموقف من الحضارة الغربية

د / محمد زرمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة باتنة–الجزائر

مقدمة

إن أبرز ما ميز المرحلة التاريخية التي عاشها النورسي تعاظم النفوذ الأوروبي، وإحكامه السيطرة التامة على العالم الإسلامي، وبروزه كقوة هائلة تمتلك العلم والمال والسلاح والتقدم والحرية، وتقدم للعالم أجمع نموذجا حضاريا راقيا، يحترم الإنسان، ويسعى إلى سعادته ورفاهيته، ويمجد العقل، ويقدس العمل، ويحفظ الحقوق، ويمني البشرية بمستقبل زاهر في ظل مبادئه وقيمه. وقد عاش هذه المرحلة بكل ملابساتها، وشاهد اندفاع الفئات الإسلامية المتغربة نحو أنوار الحضارة الأوروبية البراقة، ورأى عن كثب كيف غزت هذه الحضارة بلاده، وقدمت نفسها بديلا عن النموذج الإسلامي السائد، وأدرك بثاقب بصره أنها شكلت أكبر تحد واجه العالم الإسلامي في العصر الحديث، لأنها هددته في عقر داره، وفرضت عليه منظومتها القيمية.

فكان طبيعيا أن يهتم النورسي بهذا التحدي، وأن يفرد له حيزا في رسائل النور التي كانت مشروعا حضاريا ضخما لإعادة صياغة الإنسان المسلم الحديث، وتأهيله لممارسة دوره في الحياة انطلاقا من القاعدة القرآنية الصلبة التي تضمن له الركائز القوية التي يستند إليها .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن بديع الزمان سعيد النورسي كان واحدا من المجددين المسلمين القلائل الذين لم ينبهروا ببريق الحضارة الغربية، ولم يجرفهم تيار التوفيق بينها وبين مبادئ الإسلام، بل درسها دراسة واعية عميقة، ونظر إليها نظرة نقدية ممحصة، ووقف منها موقفا أصيلا انطلاقا من تصورات قرآنية بحتة، حيث اتخذ من آيات الكتاب الحكيم ميزانا عادلا وزن فيه هذه الحضارة، فتكشفت له حقيقتها، وظهرت له مزاياها وعيوبها جلية واضحة .

وتطمح هذه المساهمة المتواضعة إلى محاولة استجلاء موقف النورسي النقدي من الحضارة الغربية من خلال تحديد السياق التاريخي والحضاري الذي عولجت فيه هذه القضية، وبيان الأسس والمنطلقات المادية والإلحادية التي تأسست عليها الحضارة الغربية، وتحليل ظاهرة الانفصام بين الدين والعلم وما ترتب عن ذلك من مضاعفات وأزمات، ورصد مظاهر الأزمة التي تعصف بالحضارة الغربية وتنذر بتدهورها وانهيارها، والبحث في الحلول التي طرحها النورسي، والتي دعا من خلالها إلى إيجاد تعاون وثيق بين المسيحية والإسلام كمرحلة أولى، مما يشجع حركة الحوار الديني والحضاري، ويفتح الباب على مصراعيه – في مرحلة تالية – أمام الإنسانية لتلج عالم السعادة من باب القرآن الذي هو أساس الحضارة الحقة الصحيحة.

أولا : النورسي وصدمة الحضارة

كانت الفترة التاريخية التي عاشها النورسي – والتي تمتد من نهاية القرن التاسع عشر وطيلة النصف الأول من القرن العشرين الميلادي – مرحلة حاسمة من مراحل تاريخ الأمة الإسلامية، استفحلت خلالها أمراض العالم الإسلامي، وانهارت قواه تحت ثقل قرون الانحطاط والتخلف، ثم كان اختراق القوى الأوروبية المتعاظمة له هي القطرة التي أفاضت الكأس، حيث بدا – بعد احتكاك الطرفين ببعضهما – الفرق الحضاري الشاسع الذي يفصل بين العالمين، وظهر الاختلال واضحا في موازين القوى، فخضعت البلدان الإسلامية قهرا للقوة الغربية، وتدفقت تيارات حضارتها معها، تغزو المجتمعات الإسلامية، وتسيطر على مجالات الحياة المختلفة، وتزاحم أسلوب الحياة الإسلامية وتحاصره، وتصمه بالعجز والقصور، وتستقطب العقول والقلوب ببهرجها وبريقها، وتسعى جاهدة لتكون البديل الذي يخلف الإسلام ويستوعب شعوبه، ويمحو آثار حضارته، ويوطد بدلها دعائم الحضارة الغربية في أرجاء العالم الإسلامي المترامي الأطراف .

لقد كان اصطدام العالم الإسلامي بالحضارة الأوروبية بكل عنفوانها وقوتها وأطماعها لحظة احتكاك تاريخية انتشت فيها أوروبا، وشعرت فيها بعظمتها وجبروتها، واهتز لها المسلمون هزة عنيفة زلزلت كيانهم، وخلخلت ثقتهم بأنفسهم، وصدمتهم صدمة صاعقة جعلتهم يدورون حول أنفسهم ولا يعرفون فوق أي أرض يقفون : " فإنسان أوروبا قام – دونما قصد – بدور (الديناميت) الذي نسف معسكر الصمت، والتأمل، والأحلام.

وبذلك شعر إنسان ما بعد الموحدين ... بهزة انتفض بعدها مستيقظا، ليجد نفسه في إطار جديد لم تصنعه يداه "[1]، وبذلك دخل الغرب كبعد أساسي في الحياة الإسلامية والفكر الإسلامي .

وقد عايش النورسي السنوات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية التي كانت تترنح تحت ضربات القوى الاستعمارية، وتتعرض للمؤامرات المتتالية لتمزيق أوصالها وتقسيم أطرافها، وتشهد غزوا حضاريا منظما. ورأى عن كثب منجزات الحضارة الغربية تفد على بلاده، ونال حظا لا بأس به من العلوم الحديثة، وأتاحت له رحلاته واحتكاكه بشخصيات المجتمع السياسية والثقافية أن يقف على مدى تأثير هذه الحضارة في المسلمين، ثم تعمقت تجربته واغتنت بما تمخضت عنه الأحداث التي شهدها العالم الإسلامي أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعد سقوط الخلافة، وما نجم عن ذلك كله من أهوال وتغيرات عصفت بالأمة، واستباحت حرماتها، وأوردتها المهالك.

واختمر كل ذلك في ذهن النورسي، وانقدح بزناد فكره، وعرضه على ميزان إيمانه، ورصيده من العلم، فتكون من حصيلته موقفه من الحضارة الغربية الذي أوضحه بجلاء في رسائل النور، وعبر عنه تعبيرا واضحا لا لبس فيه، ودعمه بالبراهين العقلية، والأدلة الواقعية، والحوادث التاريخية، واستشرف من خلاله المستقبل استشراف مؤمن موقن، وحدد العلل والأمراض، ووصف الدواء والعلاج، منطلقا في ذلك كله من القرآن الكريم وحي الله الصادق، وكلمته الأخيرة إلى البشرية، وهذا ما يفسر عدم انبهاره بمظاهر هذه الحضارة، وقدرته على الاحتفاظ بتوازنه الروحي والعقلي تجاه منجزاتها التي جرفت أعدادا كبيرة من المسلمين، وأعمتهم عن النظر السديد والرؤية الواضحة، وأوقعتهم في مآزق فكرية وجرفتهم نحو أساليب عقيمة في الاقتباس والتقليد لا يزالون إلى يومنا هذا يعيشون آثارها الوخيمة ونتائجها المرة .

وأول ما يلفت أنظارنا – ونحن نستجلي موقف النورسي من الحضارة الغربية – أنه استطاع أن يستوعب نشأتها وتطورها، وأن يتبين أصولها وأهدافها، الأمر الذي أتاح له متسعا من الحرية الفكرية التي مكنته من تحجيم هذه الحضارة، ووضعها في حيزها الحقيقي، وتسليط نظرات النقد البناء عليها دون تحيز أو افتراء، ونجح بذلك في احتواء الصدمة وتجاوزها . وقد بدا ذلك واضحا في الحقيقة المهمة التي انطلق منها، والتي تنبه

إليها في وقت مبكر وهي أنه ليس من العدل رفض هذه الحضارة رفضا مطلقا ولا قبولها قبولا تاما، لأن التطرف في كلتا الحالتين مضر، وقد اختار ببصيرته النافذة وعقله الممحص موقفا وسطا أكد من خلاله أن المدنية الحاضرة – كما يصفها في رسائل النور – ليست خيرا محضا ولا شرا محضا، وهو ما عبر عنه بقوله : " إن أوروبا اثنتان : إحداهما هي أوروبا النافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف ... وأوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة "[2] .

وأبرز ما يشد انتباهنا في هذا النص الربط الوثيق الذي يعقده النورسي بين الحضارة والدين، فالجانب المضيء من الحضارة الغربية إنما استفاض من النصرانية الحقة، أي من ذلك البصيص الخافت من الوحي الرباني الذي بقي عالقا بالمسيحية، والذي زرع في الإنسان حب المعرفة، وحب البشر، والسعي نحو التقدم، والبحث عن الأفضل، وأيقظ فيه فطرة السعي في مناكب الأرض، وتسخير المخلوقات والكائنات لفائدة بني البشر . وعليه، فإن حسنات الحضارة – في رأي النورسي – هي ثمرة من ثمرات النصرانية الحقة التي حافظت على كلمة الله، والتزمت أصول الأديان فانبثقت عنها الحضارة الغربية الحديثة، وهو بذلك يستبعد المسيحية المحرفة التي استغلت الإنسان، وحاربت العلم، وكانت سببا في ثورة الأوروبيين على الدين وإقصائه من الحياة في عصر النهضة.

وقد أيدت الدراسات اللاحقة هذا الرأي الصائب وأكدته، حينما أثبت الباحثون في تاريخ الفكر الأوروبي أن الحضارة الغربية لم تكن من ثمرات اللائكية كما يتصور ذلك من يجهل تاريخ الفكر الغربي، بل هي حركة هامشية ومتأخرة، وإنما أصلها الأول هو التفكير اللاهوتي المسيحي : " فكبار الفلاسفة من أمثال ديكارت ولايبنتس وباسكال ونيوتن لم يكونوا من دعاة اللائكية لا في الممارسة النظرية ولا في الممارسة العملية. بل إن البعض منهم كانوا من ذوي المشروعات الإصلاحية في مجالي المسائل الدينية كـــ (لايبنتس) أو التعليم الفلسفي الديني كـ– (نيوتن) هذا فضلا عن كون جيل الفلاسفة

الألمان وكل كبارهم في القرنين التاليين كانوا في الأصل من رجال الدين تكوينا إن لم يكن حرفة وسلوكا ".

وتوصل كثير منهم إلى أن الفكرة الدينية كانت دائما هي المحرك الأساسي الذي حفز الإنسان إلى الإعمار[3]، وذهب أرنولد توينبي إلى أن الحضارة الغربية – على الرغم من الطابع المادي العقلاني الذي يطغى عليها – تعود في أصولها الأولى التي انطلقت منها وبنيت عليها أركانها إلى المسيحية، ويربطها ربطا محكما بالكنيسة الكاثوليكية، ويقرر أنها الحضارة الوحيدة القادرة على المحافظة على الشرارة الإلهية الخلاقة[4].

وهو المذهب الذي يتبناه المفكر مالك بن نبي – الذي يلتقي مع النورسي في كثير من الآراء حول الحضارة الغربية في جانبيها السلبي والإيجابي – حيث اعتبر أن الفكرة الدينية متمثلة في ذلك التصور الذي يحمله الإنسان عن حقيقة الوجود والكون هي أساس كل الجهود الحضارية التي يبذلها لإعمار الأرض، وأساس كل التغيرات الإنسانية الكبرى لكونها القاعدة الحقيقية للبناء الفكري للحضارة، والدافع القوي الذي يضفي على الإنجازات الفاعلية والتقدم، وهو ما عبر عنه بقوله : " فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء ويكون للناس شرعة ومنهاجا ... فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية"[5].

ويصر النورسي في مواضع كثيرة على ربط الدين بالحضارة واعتباره أساسا مهما من أسسها، وهذه قاعدة مهمة من قواعد فكر النورسي، ومرتكزا قويا من مرتكزاته. وحين يتحدث عن محاسن الحضارة الغربية يشير إلى أن هذه الحضارة قد تدرجت في سلم التقدم العلمي، وترقت في مجالات المعرفة حتى بلغت درجة لم تخطر ببال الإنسانية في القرون الغابرة بما أخرجت للوجود من صناعات متطورة، وسلع وفيرة، ومواصلات سريعة، وعلوم نافعة، واختراعات مدهشة، وهي كلها نعم ربانية تستحق الشكر لأنها جاءت نتيجة لكد الإنسان وسعيه الذي باركه الله، وجعله جزء من وظيفته الاستخلافية في الأرض : " إن ما أنجزته هذه المدنية الحاضرة من خوارق في ساحة العلم نعم ربانية تستدعي شكرا خالصا من الإنسان على ما أنعم عليه، وتقتضي منه كذلك استخداما ملائما لها لفائدة البشرية ومنفعتهم"[6].

وهذه المنجزات المفيدة في جملتها هي – في نظر النورسي – صورة بديعة للجهد الإنساني المبارك، ومرآة عاكسة لفطرة الإنسان السليمة التي تتفاعل مع الكون، وتتجاوب مع قوانينه، وتساير منهج الله الذي يدعو للتفكير، ويثمن العمل، ويسعى دائما نحو الأفضل. لذلك اعتبر محاسن المدنية الغربية لا تعدو أن تكون وجها آخر لوحي الله الذي صاحب الإنسانية عبر مواكب الأنبياء، مؤكدا مرة أخرى على العلاقة الوثيقة بين الحضارة والدين : " إن الأمور التي تسمى بمحاسن المدنية ما هي إلا مسائل شرعية حولت إلى شكل آخر "[7]

وبالإضافة إلى الأثر النصراني الإيجابي الذي كان الموجه الأساسي للحضارة الغربية باتجاه قطاعات الحياة الأساسية، هناك الأثر الإسلامي الذي تسرب إلى أوروبا خلال قرون طويلة عبر الأندلس وصقلية وسواحل الشام، والذي أسهم بقسط وافر في التمهيد للنهضة الأوروبية ومدها بالزاد العلمي الضروري الذي انطلقت منه لتبني عليه معارف جديدة، وتستخلص منه آفاقا علمية أرحب، وهذا ما يجعل الحضارة الغربية في جانبها العلمي والتقني تراثا إنسانيا مشاعا، وثمرة من ثمرات التراكم المعرفي للخبرة الإنسانية عبر العصور، ونتيجة لتضافر جهود البشرية : " مما ينبغي ألا ننكر أن في المدنية محاسن كثيرة إلاّ أنها ليست من صنع هذا العصر بل هي نتاج العالم وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها، وحث الشرائع السماوية ولا سيما الشريعة المحمدية، وحاجة الفطرة البشرية، فهي بضاعة نشأت من الانقلاب الذي أحدثه الإسلام لذا لا يتملكها أحد من الناس "[8] .

ويرد دعوى أوروبا التي تتبجح بنسبة كل الفضائل إليها ويشبهها بقارون الذي أعماه الغرور فنسي ربه، وحسب أنه قد حاز الدنيا وما فيها بعلمه وجهده : " إن الحضارة الأوروبية المؤسسة على أسس فاسدة، والتي تدعي أن كل ما أتاها هو من عندها كادعاء قارون (إنما أوتيته على علم عندي) (القصص، 78) لا تشكر ربها الذي أحسن إليها بفضله وكرمه تعالى "[9].

لذلك لم يعاد النورسي منجزات الحضارة الغربية العلمية والمادية كما فعل بعض المسلمين، واعتبرها مرحلة طبيعية من مراحل تطور الإنسانية، وأكد أن القرآن الكريم قد ضمت آياته إشارة خفية إلى التقدم العلمي الهائل الذي سوف تبلغه البشرية في قرون

لاحقة، وأن ما نعيشه اليوم هو جزء مما أومأ إليه القرآن، وسنرى في عصور قادمة ما هو أعجب : " إن القرآن العظيم حكيم، يعطي لكل شيء قدره من المقام. ويرى القرآن من ثمرات الغيب التقدم الحضاري البشري قبل ألف وثلاثمائة سنة المستترة في ظلمات المستقبل أفضل وأوضح مما نراها نحن وسنراها "[10] .

بل انه يذهب إلى أبعد من ذلك ويقرر في إشارة لطيفة ومثيرة للإعجاب أن معجزات الأنبياء التي ذكرها القرآن الكريم تعبر في وجه من وجوهها عما يمكن أن يصل إليه الإنسان من تقدم علمي إن هو جند طاقاته العقلية في سبيل سعادة البشر وخير الإنسانية: " إن القرآن بذكره معجزات الأنبياء إنما يدل البشرية على أن نظائر تلك المعجزات سوف تتحقق في المستقبل بالترقي، ويحث الإنسان على ذلك وكأنه يقول له : هيا اعمل واسع لتنجز أمثال هذه المعجزات، فاقطع مثلا مسافة شهرين في يوم واحد كما قطعها سليمان عليه السلام، واعمل على مداواة أشد الأمراض المستعصية كما داواها عيسى عليه السلام، واستخرج الماء الباعث على الحياة من الصخر وأنقذ البشرية من العطش كما فعله موسى عليه السلام بعصاه، وابحث عن المواد التي تقيك شر الحرق بالنار والبسها كما لبسها إبراهيم عليه السلام، والتقط أبعد الأصوات واسمعها وشاهد الصور من أقصى المشرق والمغرب ...."[11].

وقد أبدى كثيرا من الاستغراب والتعجب حينما اتهمته إحدى المحاكم التي مثل أمامها بمعارضة الرقي البشري والتقدم الحضاري مستندة إلى ما صدر عنه في بعض رسائله من انتقاد لسيئات الحضارة الغربية، وقد رد هذه الفكرة الخاطئة بشدة، ووضح وجه الحق فيها بقوله : " وفي رسالة أخرى انتقدت سيئات المدنية الحاضرة وبينت نواقصها فأسند إلي في أوراق التحقيق شيء لم يخطر ببالي قط، وهو إظهاري بمظهر من يرفض استعمال الراديو وركوب القطار والطائرة، وأكون مسؤولا عن كوني معارضا للرقي الحضاري الحاضر "[12].

وأكد في غير ما موضع أنه يشجع ويدعم اتجاه المسلمين نحو اقتباس علوم الحضارة الغربية التي تكتسب بالجد والاجتهاد، وتوجه لخدمة المجتمعات الإسلامية وتخليصها من رواسب قرون الجهل والتخلف، وترفع عن شعوبها قيد التبعية والاستلاب، مع الحرص الشديد على المحافظة على الكيان الديني والثقافي للأمة سليما معافى بناء على قاعدة " خذ

ما صفا، دع ما كدر " : " وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب – مشكورين – كل ما يعين الرقي المدني من علوم وصناعات ... فنحن لو أخذنا منهم المدنية – بسوء حظنا وسوء اختيارنا – بما يوافق الهوى كالأطفال تاركين محاسنها التي تحتاج إلى بذل الجهد للحصول عليها، نكون موضع سخرية ..."[13].

وبذلك يفرق النورسي بين نوعين من الاقتباس : اقتباس العلوم الطبيعية التي تنهض بمقدرات المجتمع الاقتصادية، وتمكنه من استغلال ثرواته البشرية والمادية وفق أحدث الأساليب بما يعود عليه بالرخاء والازدهار، ويحقق لأفراده مستوى جيدا من المعيشة يجنبه استجداء الآخرين والخضوع لهم وهو السبيل الذي يشجعه ويدعو إليه في حرارة وقوة ليعود به للمسلمين عزهم ومجدهم، واقتباس الجوانب الثقافية والعقائدية التي تعد من أخص خصائص الأمة بحيث يكون التخلي عنها واستبدالها بغيرها ضربة قاصمة لها، تهدم بنيانها وتقطع صلتها بماضيها، وتجعل منها أمة ضائعة هجينة لا خيار لها سوى التبعية العمياء، والاستلاب الكامل الذي يضعها في ذيل قافلة البشرية مهينة ذليلة، وهو الأسلوب الذي يرفضه رفضا باتا ويحذر من مغبة الانقياد له، والسير فيه. وهو بذلك يؤسس للنقد الموضوعي للحضارة الغربية، ويدعو للتعامل الحذر مع كل ما يرد إلينا منها، حتى لا نحرم أنفسنا من حسناتها، ولا يدفعنا الانبهار بها إلى الذوبان فيها كما كان الحال مع دعاة التغريب والحداثة والعصرنة .

ثانيا : الحضارة الغربية وطغيان النـــزعة المادية :

وفي إطار هذا الموقف النقدي الذي يتسم بكثير من الوسطية والاتزان والتبصر في تعداد حسنات الحضارة الغربية يُشَرِّحُ النورسي الجانب المظلم من الحضارة الغربية، ويكشف عن مساوئه، ويرصد آثاره الوخيمة على الأخلاق والأسرة والمجتمع والسياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية، والذي تمثله أوروبا الثانية التي أدارت ظهرها للأديان، وتنكرت للفطرة، وتبنت الفلسفة الإلحادية المادية، ومنها انبثقت جميع مصائب العالم، وعنها صدرت الانحرافات الفظيعة التي جعلت من الحضارة الغربية نموذجا لكل الشرور : " لسلوكها طريقا مناقضا لأسس دساتير السماء، وقيامها بمناهضتها فقد طفح كيل سيئاتها على حسناتها، وثقلت كفة أضرارها على فوائدها "[14].

ويعتبر النورسي أن الأساس المادي الفلسفي الذي استندت إليه الحضارة الغربية هو أخطر ما فيها، لأنها صادمت به سنن الله في الكون، وعاكست توجه الطبيعة الإنسانية. فبعد أن نبتت في أحضان المسيحية انحرفت انحرافا كبيرا عن الدين بسبب قصور هذا الدين عن مدها بأسباب النمو والتقدم. وتفسير ذلك أن الفكرة الدينية التي نشأت الحضارة في أحضانها إذا كانت فاسدة غير مبنية على أساس متين من اتصالها بالوحي السماوي الذي يحمل في ذاته عوامل البقاء والقدرة على شحن النفس الإنسانية بأسباب التقدم المادي والترقي الروحي معا، تفقد هذه الفكرة القدرة على التأثير، وتتوقف عن إمداد الإنسان بالزاد النفسي لمواصلة المسيرة في توازن، وتنسحب – من ثم – من الحياة، وتنكمش في زاوية ضيقة من زوايا اهتمام الإنسان، مما يؤدي إلى تضخم الجانب المادي على حسابها، وهذا ما حصل للحضارة الغربية.

فعندما اصطدمت بوادر النهضة بالكنيسة التي حاربت العلم، وأعدمت العلماء، وشلت العقل، وهاجمت الاختراعات، لفظها الإنسان الأوروبي بعنف وأقصاها من حياته، وانطلق يبني حضارته الفتية بعيدا عن الدين الذي رأى فيه قيودا متحجرة تحكم على الإنسان بالجمود والتبلد، واستبدل الوحي الإلهي بالعقل الإنساني، واستوحى من الفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية البائدة أسسا لنهضته فكان طبيعيا أن تصطبغ الحضارة الغربية بالمادية الجاسية، والتقديس المبالغ فيه للفرد وعقله وحريته، وكأن الإنسان حل محل الإله وأصبح محور الحركة الحضارية والمركز الذي تصدر عنه. وقد أشار النورسي إلى أن جميع مظاهر الانحراف في الحضارة الغربية إنما مصدرها دهاء اليونان وروما اللذان استلهم منهما الإنسان الأوروبي فلسفته في الحياة بعد أن قطع صلته بالدين .

فالحضارة اليونانية تتميز بالرفع من شأن العقل، وطغيان النـــزعة العلمية والمادية على فلسفتها، وغلبة النـــزعات الإلحادية في تفسير الوجود عليها، واعتمادها على الإنسان كمركز للوجود، ومنبع للمعرفة سواء في أبعاده الجسمية أو العقلية وحتى الدينية[15]، وقد كان لذلك كله أثره في الحضارة الغربية المعاصرة، أما الحضارة الرومانية فقد تميزت بالكفاءة العالية في الجوانب التطبيقية العملية كالفكر القانوني الذي لا يزال إلى يومنا هذا مرجعا للأمم الحديثة في تنظيم شؤونها، والجانب العمراني وغيره بالإضافة إلى الروح

الاستعمارية، والصبغة الوثنية في الجانب الديني [16]، والتلذذ بمشاهد الصراع ومناظر القتل والفتك، والإغراق في المتع الحسية، وهو ما تجلى بوضوح في السلوك الجنسي في الغرب وما طبعه من انحراف وإباحية، وفي السلوك الإنساني من حروب ونـــزعة استعمارية .

وقد تمخض هذا الدهاء الممزوج بكل شهوات الإنسان وغرائزه وأهوائه عن آثار مدمرة، جنت على البشرية وأذاقتها الويلات في جميع ميادين الحياة لأنه : " يتوجه مقدما إلى النفس والجسم ويخوض في الطبيعة ... بينما يجعل الروح خادمة، حتى تتيبس بذورها وحباتها، فيضع في سيماء الإنسان صورة شيطان " وهو : " يفهم الحياة أنها دار واحدة فقط، لذا يدفع الإنسان ليكون عبد المادة، متهالكا على الدنيا حتى يجعله وحشا مفترسا " وهو يعبد الطبيعة الصماء ويطيع القوة العمياء، ويسدل على الأرض ستار الكفران [17]. ولأنه يقوم على تصور أن جميع النعم المبثوثة في الأرض لفائدة الإنسان قد جاءت بالصدفة العمياء، لذلك فهو يستغلها استغلالا بشعا وكأنه يغتصبها خوف أن يأخذها من هو أقوى منه، فإذا ملكها أحس بأنه اكتسبها بقوته وجهده فلا يشكر عليها ربه بل يتصرف فيها بأهوائه وشهواته الحيوانية : " إذ في نظر الدهاء : لا مالك للنعم المبثوثة على الأرض ولا مولى يرعاها، فيغتصبها دون شكران، إذ الاقتناص من الطبيعة يولد شعورا حيوانيا "[18].

وفي هذه الكلمات يكشف النورسي عن أعماق الفلسفة المادية، ويحلل تأثيرها في الإنسان الغربي، ويسجل الفجوة التي تركها غياب الدين في وجدانه، ويطرح أمامنا التفسير العقلي لممارسات الغرب العدوانية، وتوجهاته الاستعمارية المبنية على الاعتقاد بأن البقاء للأقوى، وأن الطبيعة عالم جامد وُجِدَ من فراغ وهو حقل مباح لمن يملك القدرة على الاستغلال الأقصى لخيراته دون وازع أو رادع. وفي هذه الإشارة الأخيرة إلى علاقة الإنسان الغربي بالطبيعة نلمح دقة فكر النورسي وعمقه وهو يرسم أبعاد الفلسفة المادية، ذلك أن طبيعة هذه العلاقة التي أبدع النورسي في تصويرها حينما عبر عنها بالاغتصاب والاقتناص الذي يولد شعورا حيوانيا، قد طفت إلى السطح خلال العقود الأخيرة وأصبحت محور اهتمام كثير من الفلاسفة والمفكرين الذين اقتنعوا أن أزمة التلوث الرهيبة التي أصابت البيئة وجعلت البشرية تواجه محنة عسيرة جراء تزايد معدلات التلوث وانعكاس ذلك على الإنسان والحيوان والنبات والمناخ هي وليدة هذا الاعتقاد

المادي الذي استلهمه الغرب من الفلسفة اليونانية التي ترى في الذات الإنسانية المتميزة بالعقل والروح طرفا منفصلا انفصالا تاما عن الوجود الطبيعي الذي يتسم عندها بالوضاعة والحقارة، والذي وصفه ديكارت بأنه عالم مادي آلي، ضئيل وتافه في أصل وجوده[19]، مما أدى إلى نشوء شعور بالاستعلاء على البيئة استعلاء يستصغر شأنها ويلغي قيمتها ويجعلها موضعا للاستنفاع المادي المطلق دون حدود أو قيود.

وقد أجمل النورسي الأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية في خمسة نقاط، بين من خلالها المحاور الكبرى التي تدور حولها، والأهداف التي ترمي إليها، والتصورات التي تبني عليها أعمالها وتتفتق عنها سلوكيات أفرادها تجاه أنفسهم ومجتمعهم ثم باقي الإنسانية وذلك في قوله : " إن أسس المدنية الحاضرة سلبية وهي أسس خمسة تدور عليها رحاها. 1) فنقطة استنادها : القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة. 2) هدفها وقصدها : منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة : التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية. 3) دستورها في الحياة : الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام : التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة. 4) رابطتها الأساس بين الناس : العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين. وشأن القومية السلبية والعنصرية : التصادم المريع وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك. 5) وخامستها هي أن خدمتها الجذابة تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائما مسخ الإنسان وتغيير سيرته، وفتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخا معنويا "[20] .

وهكذا يرسم لنا النورسي لوحة متكاملة الجوانب للحضارة الغربية التي تنكبت صراط الله وألهت العقل وعبدت المادة فتاهت وانحرفت وطغت وبغت وساقها الشيطان بأهوائها إلى التردي والانتكاس. وقد قدم لنا من خلال هذه الكلمات القليلة التفسير الصحيح لكل ما نراه من آثارها في الواقع، ودلنا على جذوره ومبتدئه، ووضع الخطوط العريضة والمعالم الكبرى التي تضافرت لتخرج هذه الحضارة إلى الوجود على الشكل الذي نراه من تقديس القوة، واعتبار المنفعة والمصلحة الشخصية هي القيمة الأسمى، وتجاوز حدود الأخلاق والأعراف، وإطلاق القيود للغرائز والشهوات، والعنصرية المقيتة التي تبيح الاعتداء على الآخرين واستغلالهم واستعبادهم وإبادتهم .

وبذلك طغت على جميع مظاهر الحضارة الغربية الصبغة المادية الجافة والعقلانية المتطرفة اللتين ورثتهما عن الحضارتين اليونانية والرومانية، وزادت عليها ما تمخض عنه الصراع بين رواد النهضة الحديثة ورجال الكنيسة من عداء شديد للدين، وتنصل من كل قيوده، وتحرر تام من جميع التزاماته، وعزله عن ميدان الحياة، والإعلان عن انتصار العقل وسيادته على كل شيء.

إن النورسي الذي يؤكد مرارا وتكرارا أن من أخطر ما في الفلسفة المادية الغربية إنكارها للدين وإقصاؤها له من الحياة، يرى أن اعتمادها على العقل الإنساني القاصر سيقودها إلى مسخ الإنسانية وتغيير خلق الله واستجلاب غضبه بالتنكر للفطرة ومعاكستها، وقد ظهرت بوادر هذا المسخ جلية في حياة الفرد الغربي بما تشهده المجتمعات الغربية من تحلل تام من القيود الأخلاقية والاعتبارات الدينية، وانطلاق عارم للشهوات من معاقلها، وتمزيق لشبكة العلاقات الاجتماعية، وتفكك عرى الأسرة، وجفاف العواطف الإنسانية، وميل الناس الجارف إلى اكتساب المال، والعب من اللذات الحسية يحدوهم شعور قوي بضرورة اغتنام كل فرص الحياة والاستمتاع بها قدر المستطاع لإحساسهم بمحدودية أعمارهم، وارتباط وجودها بالحياة الدنيا فقط .

ثالثا : الحضارة المتأزمة

لقد توجهت سهام الفلسفة المادية الأوروبية أول ما توجهت في بدايتها إلى الدين، فحطمت قداسته في النفوس، ومحت عالم الغيب من الأذهان، وحصرت اهتمام الإنسان في عالم الأشياء، وميعت القيم والفضائل، ولم يعد لمفهوم الآخرة وجود في النفوس، ولم يعد الأجر الأخروي حافزا لعمل الخير، والإحسان إلى الناس، لأنه شيء ميتافيزيقي لم تثبت وجوده المعامل والتجارب العلمية، ولأنه لا يجلب للإنسان نفعا ولا ربحا، ولا يزيد رصيده في البنك، ولا يزيد مكانته الاجتماعية أو سمعته، ولا يحسن من صورته التجارية، لذلك فمن الأحسن له أن يلقيه في سلة المهملات مع باقي الأشياء عديمة النفع[21]،وصارت الحضارة الغربية من فرط ماديتها تقيس التقدم الاجتماعي وسعادة البشر بمقدار ما يملكون من أشياء، وتعتبر النجاح الصناعي هو الفضيلة الخلقية الوحيدة، وبسبب غياب عدد كبير من المفاهيم الأخلاقية التي تجردت من معانيها النبيلة المرتبطة

بالدين والفطرة، تضاعفت شهية الإنسان إلى المادة، وأصبح الرقم سلطانا في المجتمع الغربي [22].

وباختفاء الدين من حياة الإنسان الغربي مات ضميره، وانفصل كليا عن حياته التي تقودها المنفعة والمصلحة الضيقة، وتوجهها الأرباح والمكتسبات المادية، ووجد العلم نفسه سيدا في الميدان لا ضوابط أخلاقية تحكمه، ولا أهداف إنسانية ترشد مسيرته، فساد الاعتقاد بأنه وحده القادر على تسيير العالم، وكشف غوامضه، والإجابة عن جميع الأسئلة التي تحير الإنسان ، وسار الإنسان شوطا واسعا في هذا الدرب ثم وجد نفسه في طريق مسدود، ومن هنا بدأت أزمة الحضارة الغربية .

لقد أدرك النورسي وأكد مرارا أن بعد المدنية الأوروبية عن الدين، وتنصلها من قيمه وأخلاقه، واعتمادها على الفلسفة المادية في تسيير شؤونها سيوقعها بلا شك في هاوية التيه والضياع، وأن تحديها لله عز وجل ومحاربتها للفضائل والأخلاق سيجعل وجودها نقمة على نفسها وعلى البشرية التي تتحكم فيها بقوة المال والسلاح. وأوضح في رسائل النور المظاهر المختلفة التي تنبئ عن عمق المعاناة التي تعصف بهذه الحضارة في ظل الفلسفة المادية الإلحادية. ومنها قوله : " يا أوروبا الثانية. إعلمي جيدا أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفيهة ، ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شلت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالا عليك وستكون. أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود. ترى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة ؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد ؟ " [23].

فعلى الرغم من كل ما أحاط به الإنسان الغربي نفسه من وسائل الرفاهية والترف، وما جمع من ثروة، وما نال من متع، إلا أن النتيجة لم تكن سعادة ولا اطمئنانا وراحة بال، وإنما كانت – على العكس من ذلك – خواء روحيا رهيبا ولد أمراضا عصبية ونفسية وإقبالا جماعيا على الانتحار، وإصابات كثيرة بالجنون، وانتشارا واسعا لعيادات الطب النفسي وغيرها من المظاهر الغريبة التي تشير إلى الجوع الروحي، وتوحي بما يمكن أن يؤول إليه مصير الإنسان عندما يتمرد على خالقه ويعاكس فطرته، وهذا ما أشار إليه النورسي حينما وجه خطابه إلى أوروبا الضالة، وأكد لها أن جميع ما وفرته لشعوبها من

الترف والبذخ لا يعوضهم عن فقدانهم للسند الروحي والاطمئنان القلبي : " فأي سعادة يمكنك أن تضمني لمثل هذا المسكين الشقي ؟ وهل يمكن أن يطلَقَ لمن روحه وقلبه يعذبان في جهنم، وجسمه فقط في جنة كاذبة زائلة .. أنه سعيد ؟ "[24].

ويرجع النورسي السبب الرئيسي لهذا الانحراف إلى جهل الحضارة الغربية بالطبيعة الإنسانية، ومعاداتها الشديدة للدين الذي يكفل للبشر الإجابة الواضحة عن الأسئلة المصيرية التي تؤرقهم، واعتمادها الكلي على التفسير المادي للكون والتاريخ مما جعلها تخاطب في الإنسان جانبه المادي، ظنا منها أنها بإشباع حاجاته المادية ستحقق له السعادة التامة. وعلى هذا الأساس أطلقت العنان لغرائز الإنسان وشهواته دون قيد، وشجعت فيه الإقبال الكبير على الاستهلاك حتى أصبح عبدا لرغباته، وأسيرا لأصحاب الشركات التجارية التي تستغل فيه لهفته على اقتناء كل شيء وأي شيء، وضاعت الأخلاق والقيم في خضم بحر الشهوات الهائج. فالمدنية الحاضرة كما يقول النورسي : " قد أطلقت الأهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حر طليق طلاقة البهائم، بل أصبح يستبد، والشهوة تتحكم، حتى جعلتا الحاجات غير الضرورية في حكم الضرورية، وهكذا مُحِيَت راحة البشرية. إذ كان الإنسان في البداوة محتاجا إلى أشياء أربعة، بينما أفقرته المدنية الحاضرة الآن وجعلته في حاجة إلى مائة حاجة وحاجة، حتى لم يعد السعي الحلال كافيا لسد النفقات، فدفعت المدنية البشرية إلى ممارسة الخداع والانغماس في الحرام، ومن هنا فسدت أسس الأخلاق "[25].

لقد جرب الإنسان أن يكفر بالله ويستبعد كل القيم الدينية، ويتخذ من العقل والحواس إلها اغترارا بقدرتهما، واستهانة بالسماء، فجعل من العلم سبيلا وحيدا لاكتساب المعرفة الإنسانية، لكنه اكتشف بعد مدة أن ذلك جعله أسير عقله الذي لم يمكنه من الإلمام بأطراف المعرفة كلها، وأن هذا العقل لم يقدم له سوى علم محدود لا يرضي طموحه، ولا يسد الفراغ الذي يحسه تجاه أسرار الحياة والوجود. وبقيت روحه – التي هي جزء أصيل من ذاته – بحاجة إلى إشباع، وهو لا يستطيع أن يوفر لها الاستقرار والطمأنينة إلا إذا وصلها بمعبود تركن إليه، وتستمد منه تفسيرا غيبيا لما عجز العقل والحواس عن إدراكه. لذلك وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء الماديين الذين يحصرون اهتماماتهم في عالم المادة ويغفلون الروح، بأنهم لا يحصلون م-ن كدهم

وسعيهم إلا على علم ظاهر (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)[26].

يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية، مؤكدا ما ذهب إليه النورسي من أن الحضارة الغربية الضالة لم تحصد من جهودها العلمية واختراعاتها العجيبة سوى التعاسة والألم والدمار والشقاء واستعباد الضعفاء وقهر المظلومين، ولم تروِ نهم الإنسان إلى نبع الحقيقة الأزلي بعد أن سجنته في حدود الحياة الضيقة : " وظاهر الحياة محدود صغير، مهما بدا للناس واسعا شاملا يستغرق جهودهم بعضه ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة. والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل تحكمه نواميس وسنن مستكنة في كيان هذا الوجود وتركيبه، والذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود، ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التي تصرفه يظل ينظر وكأنه لا يرى، ويبصر الشكل الظاهر، والحركة الدائرة ولكنه لا يدرك حكمته ولا يعيش بها ومعها. وأكثر الناس كذلك، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود، وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود "[27] .

ولم تتوقف آثار النـــزعة المادية على خراب الإنسان من الداخل فقط، بل إنها امتدت لتنفث سمها في العالم أجمع، حينما اتخذ الأوروبيون من مبدأ البقاء للأقوى قاعدة للتعامل مع الشعوب الضعيفة التي أوقعوها تحت سيطرتهم، واستغلوها استغلالا بشعا، وسخروها لخدمة أغراضهم في تقوية الاقتصاد وازدياد الثروات، واتساع النفوذ، وأذاقوها لباس الجوع والخوف، ومنعوها من أن تتصرف في مقدراتها، وسلطوا عليها مختلف أنواع البغي والعدوان لتبقى ضعيفة مهينة، ومصدرا غنيا لبنوكهم ومصانعهم، وبذلك تركزت الثروة في أيدي قلة قليلة من البشر، وبقيت الأكثرية ترزح تحت أثقال الجهل والمرض والفقر، وهذا ما ينفي عن الحضارة الغربية صفة الإنسانية والتمدن، لأنها وفرت السعادة والنفوذ لعشرين بالمائة من البشرية وألقت بثمانين بالمائة منها في جحيم الحاجة والعوز : " الآن ندرك لِمَ أعرض العالم الإسلامي عن المدنية الحاضرة ولم يقبلها، ولم يدخل المسلمون فيها بإرادتهم. إنها لا تنفعهم بل تضرهم، لأنها كبلتهم بالأغلال، بل صارت سما زعافا للإنسانية بدلا من أن تكون لها ترياقا شافيا، إذ ألقت ثمانين بالمائة من البشرية في شقاء لتعيش عشرة بالمائة منها في سعادة مزيفة، أما العشرة الباقية فهم حيارى بين هؤلاء

وهؤلاء. وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة، بينما السعادة الحقة هي في إسعاد الجميع أو في الأقل أن تصبح مبعث نجاة الأكثرية "[28] .

ويتطرق النورسي إلى جانب آخر من جوانب الحضارة الغربية المظلمة المتمثل في استخدام ثمرات العلم لتحقيق أهداف دنيئة، والوصول إلى غايات وضيعة انسياقا دائما مع الفلسفة المادية الإلحادية التي تبيح للإنسان أن يتوسل بكل الأساليب مهما كانت وحشية ولا إنسانية لتحقيق أهدافه. إن تحجر الضمير الأوروبي الذي قطع صلته بالله جعله يستغل العلم الذي فتح الله له أبوابه لنفع البشرية في تدمير المجتمعات وسحق الضعفاء وإفناء الذين يقفون حجر عثرة في طريقه بوحشية لا ترحم، ومنه شهدت البشرية تلك الحروب الفظيعة التي سُخّرَت فيها الاكتشافات العلمية والاختراعات الجديدة لارتكاب المجازر، وتصفية الشعوب، وترويع الآمنين، واستباحة دماء وأعراض الأبرياء والمظلومين : " لقد قاست البشرية من ويلات هذه الحرب العالمية الأخيرة أي مقاساة، إذ رأت أشد أنواع الظلم وأقسى أنواع الاستبداد والتحكم، مع الدمار الظالم المريع في الأرض كافة. فقد نكبت مئات الأبرياء بجريرة شخص واحد، ووقع المغلوبون على أمرهم في بؤس وشقاء مريرين ... وظهر للناس بجلاء تام ... أن زخارف المدنية خادعة ومخدرة لا تجدي شيئا، وتلطخت البشرية بدماء الطعنات القوية التي نـــزلت بالذات الإنسانية وبالاستعدادات الرفيعة في فطرتها "[29]،

وهذه المظاهر وغيرها هي التي شكلت على مر السنين وتوالي التجارب أزمة الحضارة الغربية، وكشفت عن نقاط ضعفها، وأفرزت واقعا كئيبا فقد فيه الإنسان ذاته، وضاعت منه هويته ولم تعد بهارج الحضارة الحديثة قادرة على ملء ذلك الخواء الرهيب الذي يعاني منه جانبه الروحي، وأصبحت كل لذة يأتيها تعقبها حسرة وألم ينغصان عليه عيشه ويكدران صفو حياته، وتفشى الظلم والطغيان، وكثرت الجرائم الإنسانية والأخلاقية، وقد أبدع النورسي في وصف هذه الحالة التي يتخبط فيها الإنسان المعاصر الذي قطع صلته بالسماء فتاه وضاعت منه الحقيقة، في قوله : " الهوى يبطل الحس ويخدر الشعور، والشهوات الساحرة تطلب اللهو كي تخدع الوجدان وتستغفله وتنيم الروح وتسكنها لئلا تشعر بالألم، لأن ذلك الشعور يحرق الوجدان حتى لا يكاد يطاق صراخه من شدة الألم ... إذ كلما ابتعد الوجدان عن الصراط المستقيم اشتدت عليه تلك الحالة، حتى إن

كل لذة تترك أثرا من الألم، ولا تجدي بهرجة المدنية الممزوجة بالشهوات والهوى واللهو، إنها مرهم فاسد وسم منوم للضيق الذي يولده الضلال "[30].

وأوجز أمهات المسائل التي انحرفت فيها الحضارة الغربية عن الفطرة السوية فأشقت الإنسان وأورثته الضياع والفقر والسفاهة وتردي الأخلاق، في قوله : " إن المدنية الغربية الحاضرة لا تلقي السمع كليا إلى الأديان السماوية، لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع، وضاعفت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتمادى في تهييج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة، وفتحت أمامها سبل الظلم وارتكاب المحرمات. زد على ذلك فقد ألقت – بذلك – الإنسان المحتاج المسكين في أحضان الكسل والتعطيل المدمر بعد أن شجعته على وسائل السفاهة ... فأضاع الإنسان عمره الثمين سدى باتباعه هوى المدنية الحاضرة وبسيره وراء سفاهتها ولهوها "[31]

رابعا : الدين ملاذ الإنسان المعاصر والقرآن أساس الحضارة الحقة

ولا يجد النورسي لهذه الإنسانية المعذبة التي تصطلي بنار الحضارة الغربية سوى دواء واحد هو الرجوع إلى الفطرة، والالتجاء إلى الدين حيث يجد الإنسان ظلال الرحمة الإلهية الوارفة تمد أفياءها ليستظل بها كل الحيارى والضالين، وتداوي جروح التائهين عن ربهم، وتمسح مصائبهم وتبعث فيهم الحياة الهادئة المطمئنة. وهو يقرر هذه الحقيقة بعد أن يستعرض آثار المدنية الأوروبية في الإنسان الذي مسخته بعد أن أحدثت شرخا عميقا في ذاته بتضخيم الجانب المادي فيه وقتل الجانب الروحي : " إن ضلال البشرية وعنادها النمرودي وغرورها الفرعوني، تضخم وانتفش حتى بلغ السماء ومس حكمة الخلق، وأنـــزل من السموات العلا ما يشبه الطوفان والطاعون والمصائب والبلايا "[32].

فبعد أن سارت هذه المدنية شوطا بعيدا في تطبيق المنهج العلمي التجريبي على الحياة الإنسانية، اتضح في نهاية المطاف أن منهجها كان قاصرا لأنها أغفلت تماما الخصائص الإنسانية الأصيلة التي تفرق الإنسان عن الحيوان، وأسقطت من حسابها أنها تتعامل مع كائن حي ذي شقين متكاملين هما الجسد والروح، ولا يمكنه أن يحس بالتوازن والانسجام إلا إذا كان تقدمه المادي مساو ومواز لترقيه الروحي. يقول النورسي : " إن المدنية الحاضرة استولت على الأفكار بقولها أن السعادة هي في الحياة نفسها. إلا أن

الزمان أظهر الآن أن نظام المدنية فاسد ومضر. والتجارب القاطعة أظهرت لنا أن الدين حياة للحياة ونورها وأساسها "[33] .

وهذه المأساة الروحية التي يعيشها الإنسان الغربي المعاصر دفعت كثيرا من المفكرين الغربيين الذين تنبهوا إلى خطورة هذه الفجوة في حياتهم، إلى الاهتمام بالإنسان وأشواقه الروحية، وميوله الدينية وتغذية هذا الجانب فيه، معترفين أن الحضارة الغربية – على الرغم من تقدمها المادي الهائل في جميع المجالات – إلا أنها عجزت عجزا فاضحا عن تحقيق إنسانية الإنسان باعتباره مركز الوجود وغاية الحضارة.

ومن أشهر هؤلاء " ألكسيس كاريل " في كتابه " الإنسان ذلك المجهول " الذي يقول فيه : "إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاستكشافات العلمية، وشهوات الناس وأهوائهم ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا "[34] .

ثم يضيف في موضع آخر – مشخصا بوضوح تام أزمة الحضارة الغربية المعاصرة قائلا: " يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب في العالم الذي ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته ... ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية ... فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لنا لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا ... إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، ذلك لأن مدنيتنا من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة "[35]

والمتتبع لتطور الأحداث العالمية في العقود الأخيرة تتأكد لديه هذه الحقيقة التي قررها النورسي من خلال ما تطرحه المطابع من الدراسات الكثيرة والمتنوعة التي تنذر بمستقبل مظلم للبشرية التي جنحت أكثر فأكثر نحو الصدامات الدموية، وتصاعدت فيها نسب الحروب، وارتفعت معدلات الجريمة، وتطور استغلال الأقوياء للضعفاء، والأغنياء للفقراء تطورا فظيعا، وتؤكد أن الإنسان المعاصر يعيش أزمة حضارية خانقة على جميع المستويات، وهو يبحث عن نفسه وسط العالم الذي بناه بجهوده العلمية وقوته العقلية فلا

يجد نفسه فيه، بل إن هذه الدراسات تؤكد أن الإنسان كلما أوغل في تحقيق انتصارات علمية باهرة، وسار أشواطا أبعد في التقدم العلمي والتكنولوجي، كلما ازداد شقاؤه، وعظمت مصيبته، وفقد ثقته بعقله، وازداد إحساسه القوي بحاجته الماسة إلى لمسة الروح الندية، ودفء الحرارة الإيمانية .

يقول النورسي : " إن البشرية التي أخذت تصحو وتتيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة، أدركت كنه الإنسانية وماهيتها، وتيقنت أنه لا يمكنها أن تعيش هملا بغير دين، بل حتى أشد الناس إلحادا وتنكرا للدين مضطر إلى أن يلجأ إلى الدين في آخر المطاف، لأن : " نقطة استناد " البشر عند مهاجمة المصائب والأعداء من الخارج والداخل، مع عجزه وقلة حيلته، وكذا " نقطة استمداده " لآماله غير المحدودة الممتدة إلى الأبد مع فقره وفاقته ليس إلا " معرفة الصانع " والإيمان به والتصديق بالآخرة. فلا سبيل للبشرية المتيقظة إلى الخلاص من غفوتها سوى الإقرار بكل ذلك. وما لم يوجد في صَدَفَة القلب جوهر الدين الحق، فسوف تقوم قيامات مادية ومعنوية على رأس البشر، وسيكون أشقى الحيوانات وأذلها "[36]

وقد بات واضحا أن الفلسفة الإلحادية المادية التي قامت عليها الحضارة الغربية قد أفلست، وأسلمت الإنسان في آخر المطاف للتحلل الأخلاقي، والإباحية، والإدمان، والتفكك الأسري، ولنـــزعات العنف والتدمير والاستغلال التي أفقدته مشاعر الاطمئنان والسعادة والأمن والاستقرار، وحرضت فيه نوازع العداء والعنصرية، فاكتوت البشرية بناره، وغرقت بسبب نـــزواته الطائشة في بحار الدماء، ومآسي المجاعات والأوبئة والحرمان.

وعبرت هذه الأزمة عن نفسها تعبيرا جليا في هروب الإنسان المعاصر من ضوضاء الحياة المادية، وعزوفه عن مظاهر الرفاهية وأساليب الترف والبذخ، وإقباله بشغف على بساطة الروح ونظافة الأخلاق. ولم تغب عن الدارسين والملاحظين هذه الظاهرة، فسجلوا نـــزوع أعداد كبيرة من الناس – وبخاصة في العالم الغربي – إلى الأديان بحثا عن الأمان والسعادة النفسية، بعد أن انتهى المطاف بكثير من المفكرين والعلماء والفلاسفة إلى التأكيد على أن الدين هو الوحيد القادر على حل معضلة الإنسان المعاصر وفك خيوط أزمته. وقد عبر النورسي عن هذه الظاهرة تعبيرا رائعا فقال : " لقد تيقظ الإنسان

في عصرنا هذا بفضل العلوم والفنون ونذر الحروب والأحداث المذهلة، وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع، وأدرك أن الإنسان باستعداده الاجتماعي العجيب لم يخلق لقضاء هذه الحياة المتقلبة القصيرة، بل خلق للأبد والخلود، بدليل آماله الممتدة إلى الأبد. وإن كل إنسان بدأ يشعر – حسب استعداده – أن هذه الدنيا الفانية لا تسع لتلك الآمال والرغبات غير المحدودة ... وهذا هو السر في ظهور ميل شديد إلى التحري عن الدين الحق في أعماق كل إنسان، فهو يبحث قبل كل شيء عن حقيقة الدين الحق لتنقذه من الموت الأبدي، ووضع العالم الحاضر خير شاهد على هذه الحقيقة "[37]

وبناء عليه، فقد ذهب النورسي – في وقت مبكر من هذا العصر – إلى التأكيد على أن هذه الحضارة العرجاء التي افتقدت نور الوحي فأصبحت تتخبط في ظلمات الهوى لن يطول بها الزمان حتى تهوي وتذهب ريحها، والسبب الوحيد والأساسي الذي سيوردها حتفها هو عجزها عن إسعاد الإنسان وتحقيق الأمن والطمأنينة له بما سببت له من الآلام المادية والمعنوية التي أوصلت الأرض إلى حافة الفناء، وستخلفها حضارة القرآن التي تحمل بذور الرحمة الإلهية، وسحائب الرأفة الربانية، والدواء الشافي الذي يعالج جروح البشرية ويذهب بآلامها : " إنه بطغيان ذنوب المدنية على محاسنها، ورجحان كفة سيئاتها على حسناتها، تلقت البشرية صفعتين قويتين بحربين عالميتين، فأتتا على تلك المدنية الآثمة، وقاءت دماء لطخت وجه الأرض برمتها، وسوف تتغلب بإذن الله محاسن المدنية بفضل قوة الإسلام التي ستسود في المستقبل، وتطهر وجه الأرض من الأدناس، وتحقق أيضا سلاما عاما للبشرية قاطبة. نعم، لما كانت مدنية أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت سيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن، وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل قوي ومؤشر على قرب انهيارها "[38]، وفي موضع آخر يذهب إلى أن نهاية هذه الحضارة ستكون على يد الإنسان الذي بناها وأقامها لأن فطرته ترفضها، ومصلحته تتناقض مع توجهاتها : " فهذه المدنية الخبيثة التي لم نر منها غير الضرر، وهي المرفوضة في نظر الشريعة، وقد طغت سيئاتها على حسناتها، تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ، وتقضي عليها يقظة الإنسان وصحوته بالانقراض "[39] .

ومن خلال عقد مقارنة سريعة بين الأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية وتلك التي تقوم عليها مدنية القرآن وحكمته في تسيير شؤون الحياة يؤكد النورسي ما ذهب إليه من ضرورة زوال الحضارة الحديثة قريبا وانتصار كلمة الله التي تمحو آثامها وتكنس أرجاسها وتعيد للإنسانية بهجة الحياة في ظلال الأخوة والتعاون. فبينما تؤمن المدنية الغربية أن ركيزة الحياة الاجتماعية هي القوة التي تستهدف المنفعة، وتتخذ من الصراع دستورا للحياة، وتلتزم بالعنصرية والقومية رابطة للجماعات، وتهدف إلى إشباع الرغبات والأهواء وميول النفس باللهو العابث، فإن حكمة القرآن : " تقبل " الحق " نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل " رضى الله ونيل الفضائل " هو الغاية والهدف بدلا من " المنفعة " وتتخذ دستور " التعاون " أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، وتلتزم رابطة " الدين " والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية القومية السلبية، وتجعل غاياتها " الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالي الأمور " ... إن شأن الحق هو " الاتفاق "، وشأن " الفضيلة " هو التساند، وشأن " التعاون " هو إغاثة كل للآخر " وشأن " الدين " هو الأخوة والتكاتف، وشأن " إلجام النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال " هو سعادة الدارين "[40]

خامسا : ضرورة التعاون بين أهل الإيمان

إن هذه الأزمة الحضارية الخانقة التي تعيشها الحضارة الغربية والتي نبه النورسي إلى مظاهرها في مواضع كثيرة من رسائل النور، وبسط آثارها المدمرة على الفرد والمجتمع والعلاقات الدولية ومصير الإنسانية جمعاء، جعلته يؤكد أن الإنسان لا يمكنه أن يمارس حياته بشكل طبيعي ويبني الحضارة الإنسانية النافعة إذا أقصى الدين واعتمد على العلم وحده. وقد دلت التجارب المريرة التي شهدتها البشرية في ظل الفلسفة المادية أن الإنسان مطالب – في سعيه في الأرض – أن يوجد دائما توازنا بين الإنجازات المادية والأشواق الروحية، وكل انفصال يحدث بينهما سيؤدي – لا محالة – إلى اختلال في حركة الإنسان، وانحراف في مسيرته الحضارية : " ليس بالإمكان القيام بعمل إيجابي بناء مع التهاون في الدين " [41]

وفي سبيل إنقاذ البشرية من مصير مجهول، دعا النورسي جميع المؤمنين إلى تحمل مسؤولياتهم أمام الله وأمام الإنسانية المعذبة، وحثهم على العمل المخلص والمستمر للتصدي لتيار الإلحاد المدمر الذي يسري بين الناس سريان النار في الهشيم، بالتزام جادة الحق والدعوة إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة : " إن طلاب النور الحقيقيين أثناء أدائهم لواجب نشر الوعي الديني، وأثناء قيامهم بعباداتهم اتباعا للسنة النبوية، وأثناء التزامهم بالتقوى التي هي اجتناب الكبائر إنما يعدون مُكَلَفين مأمورين في سبيل خدمة القرآن "[42]، وهو يرى أن البشرية مقبلة على مرحلة عصيبة يعلو فيها صوت الإلحاد ويقوى تياره ويتسلح بالعلم ويستخدمه استخداما ماكرا لتحقيق أهدافه في محاربة الدين وقتل المقدسات وتغييب القيم والأخلاق، وهذا يستوجب من المؤمنين مرابطة دائمة على ثغور الإيمان لحمايته وإبقاء شعلته مضيئة في القلوب : " إن الذي تنتظره الأمة وسيأتي في آخر الزمان له مهام ثلاثة، وإن أهم وظيفة من هذه الوظائف الثلاث وأعظمها وأجلها هي نشر الإيمان الحقيقي وإنقاذ الإيمان من الضلالة "[43] .

وفي سبيل أن تثمر جهود المؤمنين في هذا الميدان ينصحهم النورسي بإلقاء ثقلهم كله في ميدان الدعوة إلى الله، والاجتهاد في تيسير سبل الهداية لمن ضل الطريق، ولمن جهل الدين، ولمن سكنت الوساوس والشكوك قلبه لإعادته إلى حظيرة الرحمة الإلهية، وتثبيت الإيمان في قلبه، ويتوجب عليهم خلال أداء هذا الواجب المقدس أن يتناسوا خلافاتهم الجانبية، ويتنازلوا عن مشاعر الأنانية والغرور، ويتعاونوا لإنجاح مهمتهم المصيرية بدل التناوش حول الصغائر وترك الإلحاد يستشري وتقوى شوكته، ويأسف لانقياد بعض الدعاة لأهوائهم وتوجيه جهودهم لهدم إخوانهم في الدين بسبب خلافات بسيطة، بدل أن يرتفعوا بهممهم ليكونوا في مستوى الظرف الخطير الذي يهدد كيان الدين كله بالانهيار : " فأسفا وألف أسف لأهل العلم ولأهل التقوى الضعفاء الذين يتعرضون – في الوقت الحاضر – إلى هجوم ثعابين مرعبة، ثم يتحججون بهفوات جزئية شبيهة بلسع البعوض، فيعاونون – بانتقاد بعضهم البعض – تلك الثعابين الماردة، ويمدون المنافقين الزنادقة بأسباب لتدميرهم وتحطيمهم، بل يساعدونهم في هلاك أنفسهم بأيدي أولئك الخبثاء "[44]، مؤكدا لهم أن العمل الفردي – مهما كان صاحبه مخلصا ومثابرا – لن يؤتي

ثماره تجاه تيار الضلالة الكاسح، وأن العمل الجماعي المبني على التعاون والتضامن وحده هو الذي يحقق الآمال، ويوصل إلى الأهداف.

وهو يوجه نداءه لكل فرد عامل في حقل الدعوة أن : " يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي تربط المشارب المعروضة في ساحة الإسلام – مهما كان نوعها – والتي ستكون منابع محبة ووسائل أخوة واتفاق فيما بينها فيتفق معها. واتخاذ دستور الإنصاف دليلا ومرشدا، وهو أن صاحب كل مسلك حق يستطيع القول " إن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل " من دون أن يتدخل في أمر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له أن يقول " الحق هو مسلكي فحسب " أو " إن الحسن والجمال في مسلكي وحده الذي يقضي ببطلان المسالك الأخرى وفسادها. والعلم بأن الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي وأحد منابع العزة الإسلامية ... والإدراك بأن أية مقاومة فردية – مهما كانت قوية – مغلوبة على أمرها تجاه ذلك الشخص المعنوي للضلالة "[45] .

ورسائل النور مدرسة تربوية رائدة من المدارس الإسلامية التجديدية الكبرى التي اقتفت آثار القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في الاهتمام بالإنسان كقيمة عليا في الوجود، واستلهمت منهما أساليب وطرائق تربيته وتقويمه في سبيل الارتقاء بملكاته النفسية والعقلية، واجتهد صاحبها في إحياء الحقائق الإيمانية والأخلاق القرآنية في النفوس التي غلبت عليها الغفلة، وران عليها الجهل وعصفت بها موجات الإلحاد وغارات المسخ والتشويه، ونذر عمره كله لهذا العمل التربوي الجبار هادفا من وراء نشر رسائل النور وتعهد النفس البشرية بالتوجيه والتهذيب إلى إيجاد الإنسان الرباني الصالح الذي يقيم المجتمع الصالح : "في هذا الوقت الذي يبدو في الظاهر انحسار وتقهقر تلك المشارب والمسالك الحقة القوية جدا – والتي ينضوي تحت لوائها الملايين من المؤمنين المستعدين لكل تضحية أمام الهجوم العنيف لهذه الضلالة – تحملت رسالة النور جميع تلك الهجمات، وحملت على عاتقها الأعباء كافة، وشقت طريقها سابقة الجميع في طريق الإيمان"[46] .

ومنهجها في الدعوة منهج فعال يمنح الإنسان المعرفة التامة، ويسكب الاطمئنان في قلبه من خلال العرض الشامل البسيط لمسائل وجود الله والوحدانية والنبوة والآخرة والقضاء والقدر بأسلوب واضح يخاطب قلب الإنسان وفكره وعقله وخياله وجميع

لطائفه معا[47]، ويسهم بفعالية في صد جيوش الإلحاد ومدافعة غاراتها : "إن الكلمات التي كتبت لبيان أسرار القرآن هي أنجع دواء لأمراض هذا العصر وأفضل مرهم يمرر على جروحه، وأنفع نور يبدد هجمات خيول الظلام الحالك على المجتمع الإسلامي ... نسأل الله العلي القدير أن يجعل كل جزء من أجزاء رسائل النور بمثابة مصباح يضيء السبيل القويم النوراني للقرآن الكريم"[48] .

سادسا : مستقبل الحضارة العالمية وحتمية اللقاء والحوار بين الإسلام والمسيحية

ونظرا لضراوة الهجمة التي تتعرض لها الأديان والمقدسات والقيم السامية، فإن النورسي لم يحصر الدعوة إلى مقاومة الإلحاد بين المسلمين فقط، بل سعى إلى توسيع نطاقها ما أمكنه ذلك لتشمل كل من في قلبه ذرة إيمان في مشارق الأرض ومغاربها، وهو يرى أنه قد بات من الضروري جدا أن يتكاتف أصحاب الأديان السماوية ويتعاونوا ليكونوا حلفا قويا يصد هذا التيار العنيف ويوقف زحفه، ويخفف من وطأته على النفوس، ويداوي سمومه التي انتشرت في أرجاء الأرض. ويخص في هذا المقام أصحاب الديانتين المسيحية والإسلامية ويوجه إليهما دعوة حارة للوعي بالمهمة العظيمة التي تنتظرهما لانتشال البشرية من دوامة الضياع، وافتكاكها من بين أنياب غول الحضارة المتوحش .

وهو يبني دعوته هذه على اعتقاد جازم لا يداخله شك في أن الإنسانية لن تتحمل طويلا الإفلاس القيمي والانهيار الأخلاقي، ولا حالة الاضطراب والتيه التي تعيشها، ولن تستطيع مقاومة موجة الضياع والشقاء، ولا الظلم الاقتصادي والعسكري الذي يسحقها باستمرار، ولا مضاعفات انتشار الآفات الاجتماعية والجريمة المنظمة التي زرعت الرعب في أوساط الناس وأحالت حياتهم جحيما من القلق والتوتر ومزقت شبكة العلاقات الاجتماعية وحطمت الروابط الأسرية، وأسلمت البشرية كلها لقانون الغاب، وهو لا يفتأ يؤكد أن كل حضارة تستبعد الدين وتُقصي الفضائل وتتنكر للخالق هي لعنة على الأمم والشعوب، وأن الدواء الشافي لهذه المعضلة هي الالتجاء إلى الله، والاحتماء بظلال الوحي، والاغتراف من معين الرحمة الإلهية التي بعث بها أنبياءه ورسله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ففيها يجد الإنسان راحته ويحس بلذة العيش، وتمتد آماله إلى ما وراء الدنيا الفانية مستشرفا العالم الأبدي الذي يجد في أعماقه حنينه إليه .

ويؤمن أيضا أن الفلسفة المادية التي نشرت الإلحاد وشجعت الإباحية والتحلل من القيم والأخلاق قد أفلست وظهرت بوادر إفلاسها جلية في العالم الذي يدفع سكانه ضريبة هذا التوجه المنحرف غاليا، وأن الوقت قد حان لينهض أصحاب الديانات السماوية بالواجب المنوط بهم لإنقاذ البشرية وتخليصها من أوضار الإلحاد الذي مزق روحها.

والنورسي في دعوته إلى التحالف بين المسلمين والمسيحيين لمحاربة الإلحاد وإعادة الاعتبار للدين، إنما يستشرف المستقبل استشراف مؤمن موقن، ويؤكد أن هذا التوجه قد بشر به الرسول ρ وأنه قد أشار في بعض أحاديثه إلى أن المسيحيين المخلصين الذين يحملون في قلوبهم بقايا النصرانية الحقة التي جاء بها المسيح عليه السلام سيجدون أنفسهم في آخر الزمان، وتحت وطأة طغيان الباطل واستكباره مدفوعين للتحالف مع المسلمين ضده لإنقاذ الإيمان، والدفاع عن الحق والخير : " لقد ثبت في الحديث الصحيح أن المتدينين الحقيقيين من النصارى سيتفقون في آخر الزمان مستندين إلى أهل القرآن للوقوف معا تجاه عدوهم المشترك الزندقة "[49] لأن الكفر المطلق يشن هجوما عنيفا[50] .

وهو لا يرى مانعا من أن يشمر المسلمون عن ساعد الجد لتحقيق هذا الهدف السامي منذ الآن، بل يشجع فتح حوار جاد وصريح بين الطرفين، ينصح فيه بتجاوز نقاط الاختلاف التي تفضي إلى التصادم والافتراق، والتركيز على نقاط الالتقاء التي تتمثل في أصول الأديان. فبالرجوع إلى جذور الدينين الإسلامي والمسيحي يتبين لنا أنهما يصدران عن نبع واحد، ويدعوان إلى إله واحد، ويتفقان في القيم السامية والأخلاق الفاضلة، ويربطان مصير الإنسان بيوم الجزاء الأكبر لتنمو في نفسه بذور الخير ويعيش حياته لإعمار الأرض وليس لتصيد مواطن اللذات والعب من متع الدنيا دون رادع أو ضمير خوفا من ذهاب العمر وحلول الموت. وفي هذا القدر وغيره من المبادئ العامة والعديدة التي يلتقي فيها الدينان ما يكفي لأن يضعا أيديهما في أيدي بعض ليكون هدفهما الأكبر هو سعادة الإنسان ورفاهيته بغض النظر عن عقيدته التي لا يملك أحد حق فرضها على أحد إلا إذا نبعت الإرادة في ذلك من أعماقه.

والسبيل إلى ذلك – في نظر النورسي – واضح لا لبس فيه، لأنه يعتمد على الأسلوب القرآني المؤسس على الإقناع والحوار والجدال بالتي هي أحسن، والمستوحى من

قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)[51]، مستبعدا كل أشكال العنف والضغط والإكراه، مفضلا مخاطبة الروح والعقل لتخليص أبناء الغرب الحيارى التائهين من لوثات المدنية المادية الملحدة، وافتكاكهم من أوضارها التي أثقلت كواهلهم : " إن الظهور على المدنيين من منظور الدين إنما هو بالإقناع وليس بالإكراه، وبإظهار الإسلام محبوبا وساميا لديهم، وذلك بالامتثال الجميل لأوامره وإظهار الأخلاق الفاضلة. أما الإكراه والعداء فهما تجاه وحشية الهمجيين "[52]، وبذلك يكون الحوار هو طريق الإسلام إلى الغرب .

ويبني النورسي ضرورة التحالف مع المسيحيين على أساس أن الظروف العصيبة التي تمر بها الإنسانية في ظل الإلحاد الذي يقربها يوما بعد يوم من حتفها لا تحتمل أي تأخير بدعوى الاختلاف والتباين : " لذا فأهل الإيمان والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة إلى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعوون أيضا إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى، فيتركوا مؤقتا كل ما يثير الخلافات والمناقشات دفعا لعدوهم المشترك الملحد المعتدي "[53]، ويحذر في موضع آخر من إثارة النعرات، وإيقاظ الفتن بطرح المواضيع المختلف عليها، مشددا على ضرورة التفرغ للمهمة الكبرى وهي القضاء على الإلحاد أولا لتخليص البشرية من شره ثم تأتي بعد ذلك باقي المهام حسب أولوياتها : " ... بل حتى المؤمنين المنسوبين إلى فرق ضالة لا ينبغي أن نثير معهم نـــزاعا وخصاما في هذا العصر العجيب، بل لا نجعل نقاط اختلاف ونـــزاع موضع نقاش مع المؤمنين بالله واليوم الآخر حتى لو كانوا من النصارى "[54] .

ويعلق النورسي آمالا كبيرة على التقارب المسيحي الإسلامي، ولديه ثقة أكيدة في أن العلوم الحديثة التي حررت العقل الإنساني من الخرافات والأساطير، وفتحت له أبواب التفكير المنطقي المنهجي، إذا ما امتزجت في النفس الغربية مع تعاليم المسيح الحقيقية فسوف تنتج تدينا نظيفا، ونـــزوعا نحو الحق الصريح الذي يخلص المسيحية من كل الزيادات والتحريفات التي طالتها عبر القرون، وسيمهد ذلك حتما الطريق نحو التقاء وشيك بين الديانتين، الأمر الذي سيجبر قوى الشر والإلحاد على التراجع، ويتيح للإنسانية فرصة العيش بسلام في ظلال الوحي الإلهي : " إن الذي سيقود البشرية إلى

السعادتين الدنيوية والأخروية ليس إلا الإسلام والنصرانية الحقة المنقلبة إلى الإسلام والمتفقة معه والتابعة للقرآن بعد تحررها من التحريفات والخرافات "[55] .

ولا يفتأ النورسي يغرف من نبع الوحي الصادق ليؤكد هذه الحقيقة، ويدفع المسلمين والمسيحيين إلى بذل الجهود تلو الجهود في سبيل تقريب المسافات بينهما، والاعتماد أكثر على النقاط المشتركة بين الدينين للخروج بمشروع مشترك يتم فيه تجنيد الطاقات المؤمنة للاضطلاع بالمهمات الحضارية المنوطة بها لإنقاذ البشرية من الإلحاد. وفي هذا الإطار يشير إلى أن الحديث الشريف الذي يخبر فيه الرسول ρ بأن نهاية الدجال ستكون على يد سيدنا عيسى عليه السلام يدل دلالة تامة على أن للنصارى الحقيقيين الذين يحملون روح النصرانية الأولى دور مهم وأساسي في دفع موجات الإلحاد قبل نـــزول عيسى عليه السلام، وأن إخلاصهم في طلب الحق سيجعلهم يتقربون حتما من المسلمين ليضعوا أيديهم في أيدي بعض : " إن الذي سيقتل الشخصية المعنوية لشخص الدجال – المقتول بسيف شخص عيسى عليه السلام – ويبيد كيان الإلحاد الهائل والمادية الرهيبة التي كَوّنَها، ويُفني ما يدعو إليه الكفر بإنكار الألوهية هم الروحانيون النصارى. فهؤلاء الروحانيين يهلكونه و يقتلونه معنىً بقوة نابعة من مزجهم حقيقة النصرانية مع حقائق الإسلام "[56] .

وبهذه التوجيهات الجريئة، والفقه العميق للعلاقات الإنسانية، يكون النورسي من أوائل العلماء المسلمين المجددين الذين أسسوا للحوار بين الأديان والحضارات، ومن السباقين إلى طرح هذه الفكرة التي أصبحت اليوم متداولة بكثرة في مفردات النخب المثقفة والمرجعيات الدينية الإسلامية والمسيحية على السواء في ظل التأزم الظاهر الذي يعصف بالبشرية ويهدد بفنائها. وهي سابقة تُحسَب لهذه العبقرية، ومبادرة تدل على سعة أفق النورسي وعمق تفكيره، وقدرته الفذة على النظر الواضح من خلال الأحداث، ومعرفته الدقيقة بالنفس الإنسانية ومكوناتها، ونـــزعاتها، وطموحاتها، وهي المعرفة التي استقاها من طول مدارسته للقرآن الكريم، ومداومة النظر في آياته، واستيعابه لخطابه ،و الاستعانة في معرفة حكمة الله من أوامره ونواهيه بصفاء العقل، وطهارة الروح، وما وهبه الخالق من الذكاء النادر، والعقل الجبار المتفتح.

خاتمة :

وبعد أن طرحنا على بساط البحث أهم المحاور التي أوضح النورسي من خلالها موقفه من الحضارة الغربية، ننتهي إلى أن النورسي قد صاغ هذا الموقف منذ البداية انطلاقا من القرآن الكريم الذي تشرب معانيه ومقاصده وأحاط بروحه العامة وفَقهَ أحكامه فقها صحيحا، فجاء موقفه معتدلا متوازنا، وتحليلاته صائبة موفقة، واستطاع من خلاله أن يرسم للواقع صورة حية وحقيقية بعيدا عن كل بهارج المدنية وزخارفها التي كانت تموه هذا الواقع وتغطي على خلفياته وأعماقه، كما استطاع أيضا أن يستشرف المستقبل استنادا إلى العلم الصحيح الذي استلهمه من الرؤية القرآنية، وأن يتنبأ بمصير الحضارة الغربية بناء على مقدمات منطقية، موضحا أن هذا الموقف لا يعني معاداة الكسب البشري، أو معارضة الترقي والتمدن وإنما محاربة النـــزعات المنحرفة التي تفصل بين شقي الإنسان المتلاحمين : المادي والروحي .

وقد أثبتت الدراسات المتخصصة التي جاءت بعده أن جميع آرائه قد أصابت كبد الحقيقة، ووضعت اليد على موطن الداء الحقيقي. وكلما سارت البشرية شوطا في ظلال المدنية الغربية كلما اكتشفت أن كلمات النورسي الذي كان ينظر من خلال نور القرآن ويغترف من حكمته السامية حقائق لا تقبل الجدل، ولا يعتريها الخطأ والخطل.

والبديل الذي يراه مناسبا لهذه الحضارة العاتية هو الحضارة الحقة التي جاء بها الإسلام : " أما المدنية التي تأمرنا بها الشريعة الغراء، وتتضمنها، فهي التي ستنكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة، وتضع أسسا إيجابية بناءة مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية "[57]، ومن أهم مميزاتها أنها تفسح المجال أمام الإنسان للترقي الروحي والنفسي في مقابل حيوانيته وغرائزه، وتفسح المجال لنمو العقل وتفتحه مما يؤدي إلى تسخير الإنسان للطبيعة واستثمار خيراتها لمنفعته، وتزيد من تماسك الأفراد وارتباطاتهم وتضامنهم وتكافلهم بتحقيق المساواة والعدل في توزيع الثروات، والرحمة في نيل الضعفاء من حق الحياة ما لا ينالونه بقوتهم وجهدهم من أجل تحقيق إنسانية الإنسان.

وهذه الشروط جميعا توفرها حضارة القرآن التي تقوم على العدل الإلهي، والتي يعتقد أن شفاء البشرية المعذبة في اللجوء إليها والاحتماء بظلالها : " لقد ثبت عندي بيقين وصدقت أن القرآن الكريم فيه جميع ما يلزم السعادة الدنيوية والأخروية "[58]، لأن "

دساتير القرآن الكريم وقوانينه آتية من الأزل، فهي باقية وماضية إلى الأبد، لا تهرم أبدا ولا يصيبها الموت كما تهرم القوانين المدنية وتموت، بل هي شابة وقوية دائما في كل زمان "[59]، ولأن الحضارة التي يبنيها القرآن تختلف في أصولها وأهدافها ووسائلها عن الحضارة الغربية : " إن القرآن الكريم الذي هو رحمة للبشرية كافة، إنما يقبل المدنية التي تكفل سعادة العموم أو في الأقل سعادة الأكثرية المطلقة "[60]، كما أن : " كفة حسنات الحضارة النابعة منه ستتغلب حتما على سيئات المدنية الحاضرة، بل يجعل المدنية سائرة في ركاب تلك القوانين السماوية، تخدمها وتعينها بدلا مما يحدث الآن من تنازل قسم من الدين لقسم من المدنية، ومن دفع أحكام الدين رشوة في سبيل المدنية "[61] .

وينبع موقف النورسي هذا بكل أبعاده وتجلياته من نـــزعته الإنسانية العميقة التي ملكت عليه أقطار نفسه، وبدت واضحة في جميع أقواله التي تقطر أسى على البشر الذين ضلوا سبل الهداية فغرقوا في حمأة الرذيلة، وابتلعتهم سفاهة المدنية الحديثة وعبثها، وأولئك الذين ذاقوا ويلات الاستعمار والاستعباد والإذلال على يد الأقوياء الجبابرة، وأولئك الذين راحوا ضحية حروب الكبار دون ذنب اقترفوه أو جريمة ارتكبوها، تستوي في ذلك جميع الأجناس والقوميات، لأنه ينظر إليهم بعين الرحمة القرآنية، ويأمل أن يعالجهم بوحي الله المبارك. وقد استلهم هذه النـــزعة من القرآن الكريم الذي جاء رحمة للعالمين، وشفاء للبشرية كلها من أسقامها وعللها .

قائمة المصادر والمراجع

ا – المصادر

- النورسي، بديع الزمان سعيد – كليات رسائل النور :

1 – الكلمات. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 3. 1419 هـــ- 1998 م .

2 – المكتوبات. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط1 1413 هـــ. 1992 م .

3 – اللمعات. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1413 هـــ. 1993 م .

4 – الشعاعات. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1414 هـــ. 1993 م .

5 – المثنوي العربي النوري. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 4. 1420 هـ. 1999
6 – الملاحق. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1415 هـ. 1995 م
7 – صيقل الإسلام. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1416 هـ. 1995 م

ب – المراجع

– الخطيب، د. سليمان
8– أسس مفهوم الحضارة في الإسلام. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر
9 – فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. ط 1. 1413 ه–. 1993 م
– الصالحي، إحسان قاسم
10 – بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. المغرب. 1419 ه–. 1999 م
– ضناوي، محمد علي
11 – مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 1. 1400 ه–. 1980 م
– عبود، عبد الغني
12 – الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة. (سلسلة الإسلام وتحديات العصر، رقم 11). دار الفكر العربي. القاهرة. ط 1. فبراير 1981 م .
– قطب، سيد
13 – في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط 7. 1398 ه–. 1978 م
– كاريل، ألكسيس
14 – الإنسان ذلك المجهول. ترجمة : شفيق أسعد فريد. مؤسسة المعارف. بيروت. ط 2. 1977 م
– المبارك، محمد
15 – الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية. دار الفكر. بيروت. ط 2. 1389 ه–. 1970
– بن نبي، مالك
16 – شروط النهضة. ترجمة : عمر مسقاوي ، وعبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. ط 3. 1967 م.
17 – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. مكتبة عمار. القاهرة. ط 1. 1971 م
18 – وجهة العالم الإسلامي. ترجمة : عبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. 1981 م
– النجار، د. عبد المجيد
19 – قضايا البيئة من منظور إسلامي. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر. مركز البحوث والدراسات. الدوحة. ط 1. 1999 م .

الهوامش

1 بن نبي ، مالك. وجهة العالم الإسلامي. ترجمة : عبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. 1981 م. ص 42

2 النورسي. اللمعات ، كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1413 هـ ــ 1993 م. ص 176

3 راجع : بن نبي ، مالك. شروط النهضة. ترجمة : عمر مسقاوي ، و عبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. ط 3. 1967 م. ص 70 و ما بعدها. و : الخطيب ، سليمان. أسس مفهوم الحضارة في الإسلام. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص 67 و ما بعدها .

4 ضناوي ، محمد علي. مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 1. 1400 هـ. 1980 م. ص 12

5 بن نبي ، مالك. شروط النهضة. ص 51

6 النورسي. الملاحق .ملحق أميرداغ. كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1 .1415 هـ . 1995 م. ص 379

7 النورسي. صيقل الإسلام. كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1416 هـ ــ 1995 م. ص 57

8 النورسي. الكلمات. كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 3. 1419 هـ ــ 1998 م. ص 858 ــ 859

9 الملاحق ، ص 109

10 الكلمات ، ص 296

11 صيقل الإسلام ، ص 499 (الهامش)

12 التنورسي. الشعاعات. كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1414هـ ــ 1993 م. ص 431

13 صيقل الإسلام ، ص 468

14 الملاحق. ملحق أميرداغ. ص 377

15 عبود ، عبد الغني. الحضارة الإسلامية و الحضارة المعاصرة. سلسلة " الإسلام و تحديات العصر ، رقم 11 ". دار الفكر العربي. القاهرة. ط 1. فبراير 1981 م. ص 76

16 المبارك ، محمد. الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية. دار الفكر. بيروت. ط 2. 1389 هـ ــ 1970 م. ص 40

17 الكلمات ، ص 857 ــ 858

18 المصدر نفسه ، ص 858

19 النجار ، د. عبد المجيد. قضايا البيئة من منظور إسلامي. وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية بدولة قطر. مركز البحوث و الدراسات. الدوحة. ط 1. 1999 م. ص 172

20 الكلمات ، ص 855

21 بن نبي ، مالك. مشكلة الأفكار. ص 85

22 الخطيب ، د. سليمان. فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي. المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع. بيروت. ط 1. 1413 هـ. 1993 م. ص 199 ــ 200
23 اللمعات ، ص 177
24 المصدر نفسه ، ص 177
25 الكلمات. ص 856
26 الروم ، 7
27 قطب ، سيد. في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط 7. 1398 هـ ــ 1978 م. ج 5. ص 2758 ــ 2759
28 الكلمات ، ص 856
29 المصدر نفسه ، ص 172
30 المصدر نفسه ، ص 894
31 الملاحق ، ص 380
32 الكلمات ، ص 859
33 المصدر نفسه ، ص 861
34 كاريل ، ألكسيس. الإنسان ذلك المجهول. ترجمة : شفيق أسعد فريد. مؤسسة المعارف. بيروت. ط 2. 1977 م. ص 38
35 المرجع نفسه ، ص 43 ــ 44
36 صيقل الإسلام. ص 494
37 المصدر نفسه ، ص 494
38 صيقل الإسلام ، ص 501
39 المصدر نفسه ، ص 357
40 الكلمات ، ص 472 ــ 473
41 التنورسي. المثنوي العربي النوري ، كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 4. 1420 هـ ــ 1999 م. ص 202
42 الملاحق ، ملحق قسطموني ، ص 195
43 المصدر نفسه ، ص 195
44 المصدر نفسه. ص 214
45 اللمعات ، ص 229
46 النورسي ، بديع الزمان سعيد. الملاحق. ملحق قسطموني. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1415 هـ ــ 1995 م. ص 181
47 الصالحي ، إحسان قاسم. بديع الزمان سعيد النورسي ، نظرة عامة عن حياته و آثاره. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. المغرب. 1419 هـ ــ 1999 م. ص 207
48 المكتوبات. ص 27 ــ 424
49 اللمعات ، ص 229

50 الملاحق. ملحق أميرداغ ، ص 299
51 آل عمران ، 64
52 صيقل الإسلام. ص 535
53 اللمعات ، ص 229
54 الملاحق. ملحق قسطموني. ص 215
55 صيقل الإسلام ، ص 499
56 النورسي. الشعاعات. كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1413 هـ ـ 1993 م. ص 115
57 صيقل الإسلام ، ص 359
58 الكلمات ، ص 295
59 المصدر نفسه ، ص 473
60 المكتوبات ، ص 606
61 الملاحق ، ملحق أميرداغ. ص 380